الفصل الثالث

المجتمع الإسلامي المعاصر

● المجتمع الاسلامى المعاصر فى القرن العشرين هـو وريث المجتمع الاسلامى الحديث فى القرن التاسع عشر .

والثورة الصناعية فى غرب أوروبا فى القرن الثامن عشر ، التى وسعت الفجوة فى الرعايا الاجتماعية ، وفى توزيع الأرباح الصناعية ، وخلقت بذلك توترا بين رؤوس الأموال من جانب آخر ، انتهى بقيام فلسفة كارل ماركس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبمطالبة هذه الفلسفة :

بالثورة الدموية العمالية العالمية ضد أصحاب رؤوس الأموال ،

والغاء الملكيات الخاصة ،

واقامة مجتمع لا طبقية فيه ،

... هذه الثورة الصناعية هى التى عرضت الأمة الاسلامية فى افريقيا وآسيا ومجتمعاتها المختلفة الى الاستعمار الغربى لضمان الحصول على المواد الخام ، وبأسعار منخفضة من بلاد الأمة الاسلامية ، ولجعلها سوقا استهلاكية للمصنوعات الغربية ، وبالأخص مصنوعات النسيج ، تباع فيها هذه المصنوعات بأثمان مجزية ، اى بأثمان مرتفعة .

وبهذا الازدواج فى خفض أسعار المواد الخام ، ورفع المصنوعات منها تتحقق الأرباح الوفيرة لأصحاب المصانع الغربية أولا ، ثم للاقتصاد القومى فى البلاد الصناعية ثانيا .

تعرضت المجتمعات الاسلامية فى افريقيا وآسيا — كما تعرضت مجتمعات

افريقية وآسيوية أخرى ـ للاستعمار الأوروبى ، وللغزو المسلح من البلاد الصناعية الأوروبية .

وقبلت هذه المجتمعات الاسلامية الاستعمار الغربى ، لانها كانت آنئذ تمثل قمة الضعف فى المجتمعات البشرية . وهو ضعف :

الأمية ،

والتفكك ،

والطائفية ،

والتخلف فى مجالات السياسة ، والاقتصاد ، والثقافة .

واذا سيطر الضعف على مجتمع ما سيطرت الأنانية ، والفردية على اتجاهات الأفراد وعلى مساعيهم .

ومعنى ذلك :

شيوع الانتهازية فى السلوك ،

وتخلف المعنى الوطنى أو القومى فى معاملة الأجنبى ولو كان غازيا ومستعمرا .

لم يقدر الاستعمار الغربى أن يكون احتلاله للمجتمعات الاسلامية قصير الأجل . ولذلك وضع خططه على أساس أن تكون هذه المجتمعات فى « تبعية » لقيادته السياسية والاقتصادية :

فعمد الى مجال الثقافة وأبعد بعض عناصر التراث القومى ، وأضعف البعض الآخر فى مناهج التعليم . واستعاض عما أبعده أو أضعفه بعناصر ثقافية غربية توحى بعظمة الغرب ، وبسلامة قيادته ، وبالاعتماد فى التبعية عليه .

وقد أضعف وضع الاسلام فى المناهج التاريخية والتعليمية لا ليحول نظرة الناشئة عن الماضى الاسلامى نحو المستقبل الغربى فقط ، ولكن أيضا : لأن الدول المستعمرة نفسها قد تبنت بعد الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر فى سياسة الدول نظرية « مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة » فأرادت أن تطبق هذا المبدأ فى سياستها الاستعمارية فى المجتمعات الاسلامية .

ومنذئذ عرضت هـذه المجتمعات توجيه « العلمانية » فى التعليم ، والسياسة :

أما فى التعليم فقد غض النظر فى مناهجه عن القيمة الذاتية للاسلام كمصدر لتكوين المجتمع الاسلامى ، ولتاريخ الأمة الاسلامية . وربما ألصقت بالاسلام تهم : الضعف ، والتخلف ، والجهل الذى يسود المجتمعات الاسلامية اذ ذاك . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى : فقد عزل الأزهر وشبيهه من المؤسسات الاسلامية فى تلك المجتمعات عن الحياة العامة ، وعن اعتبار العصر وتوجيه الوقت ، ليصبح عديم الفاعلية وان بقى أثرا من آثار التاريخ .

وأما فى السياسة فقد فصلت المجتمعات الاسلامية بعضها عن بعض ، وأوهنت الروابط بينها ، بحيث : أن أحداث أى مجتمع منها لا يحرك بقية المجتمعات الأخرى بل ولا يثيرها ، ولو كانت تلك الأحداث تصور وحشية المستعمر فى الكبت والقمع والاذلال والاستغلال فى اى من هـذه المجتمعات .

وبعد مرور جيل على توطين التوجيه الغربى فى المجتمعات الاسلامية — فى ظل الاستعمار — ابتدأت التبعية لتفكير الغرب وفلسفته تظهر وتشتد . وبقدر ظهور هذه التبعية بقدر ضمور الاصالة وضيق نطاق القيم الموروثة فى التأثير على التوجيه فى هذه المجتمعات .

وبعد مرور جيلين أصبح الغرب قبلة المسلمين ، وموضع نظرهم ، وأصبحت :

نظرياته فى الفكر والاقتصاد ،

وأساليبه فى الأدب والسلوك ،

بجانب علمانيته فى الفصل بين الدين والدولة ، وتوجيهه السياسى — كمصانعه فى الانتاج ومصنوعاته فى الاستهلاك — لا غنى عنها لأى من هذه المجتمعات .

بل اصبحت لغة الغرب لغة مفضلة فى الحديث، والدراسة ، والكتابة ، اذا

ليست باللغة القومية التى لا يستعملها الا العـامة والمثقفون من أشباه الأميين .

عرفت المجتمعات الاسلامية اذن « العلمانية » أو الفصل بين الدين والدولة .

وعرفت نظم الغرب فى الادارة ، والتعليم ، والسياسة ، ونظـمه الاقتصادية والمالية ،

كما عرفت مشاكله وأوضاعه الاجتماعية .

وأصبحت هذه المشاكل فى زيادتها ، أو فى تعقيداتها ، وفى حلولهـا تجد لها صدى مباشرا فى المجتمعات الاسلامية اذ ذاك .

ومن الأوضاع الاجتماعية التى عرفها الشرق الاسـلامى المحتل عن الغرب وضع الطبقية فى المجتمع الأوروبى . ومحاولة الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر بشعاراتها الثلاثة .

الأخوة ،

والمساواة ،

والحرية ،

... تغيير وضعه ليكون مجتمعا انسانيا وليس مجتمع عبيد وأحرار .

وارتبطت المجتمعات الاسلامية آنذاك ارتباطا وثيقا بكل ما يحدث ، أو يصدر من أوروبا الى الشرق الاسلامى فى أية صورة كانت ، وأصبحت التبعية فى الانفعال بها واضحة لا ريب فيها ، بحيث كاد يعتبر هذا الشرق الاسلامى مرآة للغرب تنعكس أحداثه وقضـاياه ، ومشـاكله وتفكيره وأسلوبه فى الحياة ، عليها فى جلاء .

وجاء القرن العشرون وابتدأت العلاقة السياسية بين الغرب المستعمر والشرق الاسلامى تتخلخل أو تضـعف ، واشتدت المعارضة الوطنيـة وافصحت عن مطلب رئيسى لها وهو : « الاستقلال » .

والمقصود بالاستقلال فى الدرجة الأولى ، هو الاسـتقلال السياسى ، اى قيام حكم وطنى . ثم الجلاء العسكرى ان كانت هناك قوات أجنبية تعسكر رمزا للاحتلال ولقوة المستعمر الغربى .

وظهرت المعارضة الوطنية للاستعمار الغربى على اشدها فى فترة مابين الحربين العالميتين الأولى ، والثانية . وابتدأ يدرك الغـرب المستعمر : ان الحكم الأجنبى المباشر ، أو فى صورة مقنعة ، ليس له بقاء فى المجتمعات الاسـلامية . ولكن مع ذلك كان يماطل بعلة أو بأخرى فى قيـام الحكم الوطنى ، أو فى الاستقلال السياسى للبلد الاسلامى ، وفى سحب قواته خارج أراضيها .

ومع هذه المماطلة كانت تقوى روح الكراهية للغرب . ولكنها لـم تكن تتعدى النقد المرير لأسلوبه السياسى . الى أن جاءت الحرب العالمية الثانية وانتهت بما انتهت اليه من زوال نفوذ « المحـور » فى العـالم ، وانضمام الشرق الشيوعى الممثل فى الاتحاد السوفييتى الى الغرب الممثل للاستعمار والعلمانية فى النفوذ أو فى محاولة تقسـيم النفوذ فى عـالم القرن العشرين .

وقد استفاد الاتحاد السوفييتى فى مجال الزعامة العالمية بكراهية الدول التى كانت تحت الاستعمار الغربى للغرب ولسياسته . فأعلن معاداته للاستعمار ، كما أعلن مساعدته بالسلاح والعتاد للتخلص من هذا الاستعمار أو من بقاياه .

وقد كان لهذا الاعلان صداه فى التحول العاطفى من الغرب «الرأسمالى» الى الشرق « الماركسى » أو « الشيوعى » لتحقيق الاستقلال الذى كان أملا وطنيا ، وظل كذلك ، والذى تعتبره تلك الدول رمزا لكرامتها ، ومن كثرة مماطلة الغرب المستعمر فيه كانت تعده أملا بعيد الوقوع .

وكانت احدى النتائج التى أتت بها الحرب العالمية الثـانية بالنسبة للعالم ادراك الدول المستعمرة فى الغرب وجوب العدول عن الاستعمار كلية ومنح البلاد التى ما زالت تحت الاستعمار استقلالها ، وانشاء علاقات تتسم بالمساواة فى الاعتبار وفى المعاملة السياسية والاقتصادية . وتجلى هذا الادراك بعد قيام الأمم المتحدة ووضع دستورها فى سـنة ١٩٤٨ .

وأخذ الاستعمار يتراجع وينقلص ، لا بفضل الاعـلان السوفييتى لمناواة الاستعمار ، ولكن بفعل الدول المستعمرة نفسها ، ضمانا لمستقبلها فى معاملة حسنة مع الشـعوب التى كانت مستعمرة ، ومنحت أو تمنح استقلالها .

ومنذ النصف الثانى من القرن العشرين كانت حركة التراجع للاستعمار الغربى فى سرعة واضحة ، حتى أصبح العالم اليوم لا يكاد يجد مستعمرة باقية الا وعد باستقلالها فى وقت لاحق .

وانتهى بذلك اليوم الاستعمار الغربى . لكن كراهية المعارضة الوطنية لهذا الاستعمار لم تنته — وان لم تكن على قوتها فيما مضى — بالنسبة للدول التى كانت لها مستعمرات . كما أن التحول العاطفى نحو الاتحاد السوفييتى — بفضل دعايته القوية ودعاية عملائه فى افريقيا وآسيا تحت شعار حركات التحرير — لم يخف ، ولم يضعف .

وانما لهذا التحول العاطفى عدل الاتحاد السوفييتى فى استراتيجيته السياسية : فألغى ظاهرا « الثورة العالمية » وأعلن « التعايش السلمى » مع الاستمرار فى الحرب الباردة ضد الرأسمالية الغربية ، وبالأخص ضد الولايات المتحدة الأمريكية ، بالاستهجان ، والتهديد ، والتقبيح ، والتقليل لكل ما يجرى فيها وما يتصل بمظاهر الحياة والسياسة الأمريكية . ثم من جانب آخر بالاشادة بكل ما يأتى به الاتحاد السوفييتى ولو كانت أساسه الاحصائيات أو البيانات المصطنعة .

والبلاد التى استقلت حديثا عن النفوذ الغربى فى افريقيا وآسيا وجدت فى الاتحاد السوفييتى بسبب تغيير استراتيجيته السياسية ، ثم بسبب رواسب الكراهية للغرب التى تبقت بعد الاستقلال فى مجتمعات هذه البلاد سندا تستند اليه فى السياسة الدولية .

وبعض هذه البلاد يستقبل هذا التغيير السياسى للاتحاد السوفييتى فى حذر واحتياط . والبعض الآخر تدفعه روح الكراهية للغرب الى تغيير نظام الحكم كلية ليساوق النظام الآخر المقابل ، وهو نظام السوفييت .

فيعلن الاشتراكية الماركسية ،

ويلغى الأحزاب السابقة ،

ويؤسس نظام الحزب الواحد ،

ويفرض الرقابة على وسائل الاعلام ،

ويناوىء الدين ويلغى الأوقاف الدينية فى شتى صورها .

وقد يقيم من بين أجهزته الدعائية جهازا دينيا ، ليقوم بتغطية شل فاعلية الدين ويشارك فى القضاء على أموال الأوقاف الدينية .

وهكذا توطن فى المجتمع الاسلامى الحديث فى القرن التاسع عشر :

النظام العلمانى الغربى فى التوجيه بكل ما له من آثار ،

وكذلك النظام السياسى الديمقراطى ، وهـو نظام الأحزاب والملكية الفردية ،

والنظام الاقتصادى وهو المباشرة الحرة لرؤوس الأموال ،

والنظام الادارى فى دواوين الحكومة ،

والنظام القضائى فى المحاكم المختلفة .

وورث المجتمع الاسلامى المعاصر فى القرن العشرين هذه النظم الغربية .

وبعد الاستقلال السياسى وجد نفسه أمام نظم أخـرى تحكم المجتمع وهى النظم الاشتراكية الماركسية .

وبسبب رواسب الكراهية للغرب التى ترسبت بعد المعارضة الوطنية للسياسة الغربية الاستعمارية فى ظل الحمـاية والاستعمار ، ثم بسبب البريق اللامع للسياسة السوفييتية التى بشرت بها بعد النصر فى الحـرب العالمية الثانية من أجل المنافسة فى زعامة العالم السياسية والاقتصادية . مالت بعض المجتمعات الاسلامية الى قبول النظام السـوفييتى فى الحكم ، كراهية للغرب من جانب ، وأملا فى سند السوفييت لبقاء الحكم من جانب آخـر .

والمجتمعات الاسلامية التى قبلت نظـام الحكم السـوفييتى أو النظام الماركسى اللينينى ، بعد توطن النظام الغربى ، وبالأخص اتجاه العلمانية .. زاد فيها بقصد أو بغير قصد : اضعاف الدين ، وهو الاسلام .

وربما تستعيض عنه باسم « القيم الروحية » اذا لم ترد قيادة المجتمع مفاجأة الراى العام المحلى أو العالمى الاسلامى بالغاء الدين .

واسم القيم الروحية تعبير بديل عن الغاء الدين وابعاده كلية .

ومثل هذه المجتمعات الاسلامية التى قبلت النظام الماركسى اللينينى لا يعد قبولها لهذا النظام استمرارا فحسب فى اتجـاه العلمانية وابعادا للاسلام عن التوجيه . وانما يعتبر قفزا راديكاليا فى القضاء عليه .

وهذه المجتمعات التى قبلت النظام السوفييتى بعد استقلالها السياسى بسبب كراهيتها للغرب لم تكن مجبرة على قبوله اطلاقا ، كما لم تكن ملزمة باستمرار الأخذ بالنظام الديمقراطى الغربى فى الحكم ، لأنه غير متعين حينئذ .

وانما الاتجاه الوطنى والتاريخى ... وانما الأصالة وعدم التبعية للشرق أو الغرب كانت تبدو واضحة فى تأسيس نظام الحكم فى المجتمع الاسلامى ، بعد استقلاله على الأيديولوجية التاريخية التى ورثها ، وعرف بها ، وعاش مكافحا الاستعمار الغربى من اجلها ، ونجح فى مكافحته ومعارضته بسببها وحدها ، وهى الأيديولوجية الاسلامية .

وهذه الأيديولوجية الاسلامية تستطيع أن تفى بحاجات المجتمع المعاصر فى نظام الحكم ، كمجتمع قوى بناء . ولكنها من غير شك لاتستطيع أن تستجيب للانطلاق الفردى فى اشباع الشهوات كما هو يجرى فى المجتمع الرأسمالى الغربى ، ولا أن توافق اطلاقا على الارهاب . والاكراه ، والاستبداد ، والاستعلاء كأدوات فى نظام حكم المجتمع ، كما هو التطبيق العلمى للفلسفة الماركسية اللينينية لثورة « البروليتاريا » .

ووفاء الأيديولوجية الاسلامية بحاجات المجتمع المعاصر يقوم :

اولا : على تحقيق «الحرية الفردية» التى ثبت أنها تتميز بها على النظامين الغربى والشرقى فى الحكم على السواء ، والتى هى كذلك البداية الضرورية لوجود المستوى الانسانى فى الفرد .

واذا كان وجود الفرد هو وجود انسانى فالمجتمع الذى يتكون منه هو مجتمع انسانى بالضرورة . وعندئذ سيكون التعاون ، والفهم الجماعى المشترك بين الأفراد ، والتقدم فى البناء البشرى والمادى من النتائج الضرورية لوجود المستوى الانسانى للفرد .

ولكن الأخذ بنظام الأيديولوجية الاسلامية فى ادارة وتوجيه المجتمع الاسلامى يتطلب من القادة الذين يباشرون الحكم :

اولا : التخلى عن ذلك الوهم الذى ينسج تعارضا أو عداء بين « العلم والدين » . فان ذلك كان قضية خلقتها الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر انتقاصا من الكنيسة ، بسبب مساندتها للطبقة الأرستقراطية فى

المجتمعات الأوروبية السابقة على الثورة ، على نحو ما تطالب الأيديولوجية الماركسية بالغاء الدين وتقويض مبادئه كاجراء انتقامى ضد الكنيسة وسلطتها كذلك فيما تدعيه من مساندتها الأثرياء فى مواجهة العمال ، وكوقاية من كشف « اللااخلاقية » و «اللاانسانية » التى تضمنها مذهب « المصلحة » أو « البرجماتزم » الذى تأخذ به اذا بقى للدين اعتباره فى ظل الحكم الماركسى . والفصل يجب أن يكون بين الدين والكنيسة ، وليس بين العلم والدين .

ثانيا : الايمان بالمصلحة العامة للمجتمع ، دون مصلحة بعض الأفراد الشخصية . اذ عندئذ يكون هناك مجال للالتقاء مع مبادىء الاسلام فى نظام الحكم . اما تحقيق مصلحة بعض الأفراد على حساب البعض الآخر أو تحقيق مصلحة القلة على حساب الكثرة ، فسبيله أحد نظامى الحكم فى المجتمع الأوروبى ، اذ فى ظل واحد منهما تنشأ أرستقراطية المال ، وفى ظل الآخر توجد أرستقراطية السلطة والجاه .

ثالثا : الفهم للاسلام كنظام للانسان فى انسانيته : فى سلوكه اليومى ، وفى سلوكه الجماعى ، وليس كنظام للبادية ،

أو للقبلية ،

أو لوقت مضى ، ولم يعد ،

أولجنس معين من البشر ، دون بقية الناس .

... مما يثيره المغرضون من الباحثين الصليبيين ، أو الأميون والسطحيون من المثقفين ، أو مما تقصه المزاعم الاسرائيلية فى كتب التراث الاسلامى .

رابعا : الادراك الواسع لمبدأ : ان قيادة الأفراد لا تكون باغراء المنفعة المادية ولا باثارة لعاب اللسان بالوعود بمتعة البطن والفرج وحدهما . فالانسان مزدوج فى تركيبه وطبيعته . وتأكيد جانب واحد فى مركبه هو بمثابة كبت للجانب الآخر فيه . وذلك يعنى محاولة تحويله الى عنصر واحد ، على الضد من طبيعته التى خلق عليها .

وثنائية الانسان ، هى ثنائية الوجود ، وثنائية الحياة :

فالانسان اذا كان جسما ونفسا فهو مادة وروح ويحيا ويموت ،

والوجود اذا كان متعددا فمرده الى واحـــد ، ومصـــير الواحـــد فى الوجود بدوره الى تعدد .

والحياة اذا كانت نهاية لفناء أو عدم ، فهى مقدمة ضرورية للفناء والعدم مرة أخرى .

... وهذه الثنائية تفرض حتما أن يؤخذ فى اعتبار التوجيه :

المعانى الانسانية :

كالاخلاص ،

والصبر على المشاق ،

والوفاء بالوعود والعهد ،

والمشاركة فى العواطف ،

والتعاون فى يسر الحياة وعسرها ،

والشجاعة والاقدام فى الدفاع عن المبدأ ، والوطن ، وفى انقاذ المستغيث،

والتهذيب فى القول والعمل .

... مما تكونه « الروحية » بجانب التكافل على دفع الحاجة المادية والمشاركة فى اقتسام نعم الله ، لا على أساس : أن المعطى متفضل على الآخذ صاحب الحاجة ، وانما على أساس أن النعم كلها من الله وللجميع .. **« والله فضـــل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء »** (١) .

وهذه الروحية هى روحية الاسلام وليست روحية الفلسفة .

● وفى تطبيق النظام الرأسمالى فى المجتمع الاسلامى ـــ على عهد العلمانية ، والاستعمار الغربى ـــ لم يشجع هذا النظام الربا والتعامل به فحسب فى أوسع دائرة فى جوانب الاقتصاد والمال . وانما شـــجع على الغاء الزكاة الواجبة . واستأصل هذه العبادة الاسلامية التى هى حجر

---

(١) النحل : ٧١ .

الزاوية فى التكافل الاجتماعى من جانب ، وفى توفير وسائل الدعـــوة الى سبيل الله قوية ومتجددة .

فالزكاة هى مصدر التمويل لدفع حاجة المحتاج عن عجز أو عن عارض مؤقت بجانب ما له من آثار أخرى على ابعاد الدين عن التوجيه ، ولدفع غرم الغارم فى سبيل الأمة وبقائها متماسكة قوية ، وللاستمرار فى الدعوة الى الله .

وليست الزكاة مصدرا لتمويل ما يطلبه الناس فى حياتهم المدنية من مرافق ، وطرق وخدمات تعليمية وصحية ... الخ .. فذلك متروك أمره لاتفاق بين ســـكان الحى أو المدينة أو البلد ، أو لتبرع المتبرع منهم فى سبيلهم جميعا .

والزكاة اذن شىء يختلف عن « الضرائب » التى أتى بها نظام الحكم الغربى لسد الحاجات المدنية ، وأخذت بها المجتمعات الاسلامية .

ولا تغنى عنها الضرائب اطلاقا . اذ سبيل كل منهما مختلف ، ووجهة أحدهما تغاير وجهة الآخر .

ولذا استغنى المجتمع الاسلامى بالضرائب عن الزكاة ـــ ومـــع ذلك الغيت الأوقاف على الشئون الاسلامية ـــ فالاهمال ، والنسيان ، ثم الفناء أمور مترقبة للدعوة الاسلامية حتما . فضلا عما ينتظر من فتح ثغرات داخل المجتمع الاسلامى يطرد منها الى خارجه : معنى التكافل والتضحية فى سبيل الأمة . وهما أساسان ضروريان لتخفيف حدة الحقد بين الفقير والغنى ، ولتقوية روح المؤازرة للمنكوب فى ماله ، أو الســـاعى به لدفع الفتنة فى الأمة ، أو رد الاعتداء عليها ، ولتشجيع التخلص من الرق فى صورته القديمة . أو الاستعباد فى صورته الجديدة ، وتوفير الحـــرية الفردية والجماعية ، والكرامة الانسانية لمن اضطروا الى عدم ممارستها فى سلوكهم وتصرفاتهم بسبب ما .

و « الرقاب » التى جاءت كمصرف من مصارف الزكاة ليســـت هى رقاب النظام الماضى وحدها . وانما هى كذلك الرقاب التى تستعبد أو

تضطهد فى ظل القرن العشرين ، وفى عهده التيكنولوجى ، وجهالته الانسانية المظلمة .

وفى النظام الماركسى فى الحكم فى اى مجتمع اسلامى فى الجانب التوجيهى لا يلغى فيه الدين عملا وتطبيقا ، ولا تلغى الأوقاف الاسلامية موضوعا وهدفا فقط ، بحكم معاداة الماركسية للدين ومصادر الدعوة اليه . وانما بالاضافة الى ذلك :

تعطل الزكاة كفريضة وعبادة .

ويعطل الحج كفريضة وعبادة .

ويلغى الميراث ونظامه .

... اذ الغاء الملكية الفردية ، وتحديد أجر الانسان على قدر انتاجه ، ثم فيما بعد على حسب حاجته ... لا يترك فائضا من مال تخرج منه الزكاة ، أو تؤدى منه فريضة الحج ، أو يوزع كميراث .

وأجر الانسان على قدر الانتاج ، وان كانت عبارة تتسم بالمرونة فى التحديد ... فان واقع الأمر أن انتاج الفرد مقيد بالحد الأدنى لطاقة المستوى العادى من الأفراد فى هذا النظام الماركسى . على معنى : أن الفرد الذى له طاقات واسعة على الانتاج والحركة لا يمكن من العمل الا بمقدار الآخر صاحب الطاقة المحدودة معه فى العمل . فقلما يؤجر على عمل اضافى ، وقلما كذلك ينتج انتاجا خاصا به يربح به ربحا وراء أجر الدولة . والعمل من أجل ذلك يسير فى الدولة بخطوات البطىء ، وحسب مستوى البليد فى الانتاج .

ويحاول الاصلاح الاقتصادى الماركسى الآن أن يخلق فى مجالات العمل ما يسمى : بـ « الحوافز الفردية » دفعا بالانتاج فى خطوات أسرع وأجود ، وتلافيا للكسل فى العمل أو البلادة فيه .

وفى واقع الأمر ليس هناك كسل أو بلادة . وانما الشأن يعود الى انزال النظام نفسه أصحاب الطاقات الكبيرة والواسعة من الأفراد الى مستوى الأقل والأدنى منهم ، توسيعا لفرص العمل للمتعطلين . ومجالات

الانتاج والخدمات فى هذا النظام ينظر اليها على أنها مصـــادر رزق وتعيش ، قبل أداء الخدمات واعداد الانتاج فى ذاته .

وفى المجال الاقتصادى يستورد المجتمع الاسلامى المقلد لنظام الحكم الماركسى اللينينى حلولا لمشـــاكل لم تقع بعد . ثم قد يضـــطر من أجل التبرير الفلسفى الماركسى الذى يدور حول « الصراع الطبقى » الى تصور قيام المشاكل ، باقامة الدولة لبعض المصانع كى يطبق الحل الذى يدعى : انه علاج هذا الصراع فى الفلسفة الماركسية .

فالدولة عندما تقيم بعض المصانع ليعمل فيها بعض العمال لم يكن هناك مشكل هو استغلال صـــاحب العمل للعامل ، وبالتالى لم يكن هناك صراع طبقى يستوجب النداء بسيادة العمال والسخط على استغلال رأس المال . والدخول فى مثل هـــذه الدائرة تضييع للوقت من جانب ، واثارة للأحقاد على أشخاص متوهمين من جانب آخر . اذ الدولة هى التى تملك وليس غيرها ، وملكها ملك عام للجميع .

والوضع الاقتصادى فى المجتمع الاسلامى قبل أن تقيم الدولة بعض المصانع ليس هو الوضع الاقتصادى للمجتمع الصـــناعى الغربى ، الذى أوحت ظروفه والنجوات فى الرعاية والخدمات التى كانت موجـــودة بين أصحاب رؤوس الأموال فى الصناعة ، وعمال المصـــانع بنشأة الفلسفة الماركسية لصالح الطبقة العمالية . فالمصانع التى تكون موجودة اذ ذاك — ان وجدت — رغم قلة عددها ليست بذات بال فى الانتاج . والعمال الذين يعملون فيها قلما تصـــل نسبتهم الى مجموع الشعب الى واحـــد فى المائة . ومع ذلك ربما تكون ظروف العمل فيها أفضـــل بكثير من ظروف تلك المصـــانع التى كانت على عهد كارل ماركس فى القرن التاســـع عشر فى انجلترا أو أوروبا الغربية .

وحديث مثل هذه المجتمعات عندئذ عن « الرأسمالية » واستغلالها ، وعن الصراع الطبقى ، وهو حديث لا موضـــوع له ، وهو شـــعار لدعوة المؤازرة للحكم القائم أكثر منه تعبيرا عن حقيقة واقعة .

أما الملكيات الزراعية فى المجتمعات الاسلامية التى يعتبرها النظام

الماركسى المستورد « اقطاعا » فغالبيتها ليست باقطاع ، لا من حيث حجمها فحسب ، ولكن من حيث أصل ملكيتها أيضا . انها كثيرا ما تتجمع بسبب النشاط الفردى .

ربما فى بعض المجتمعات يكون تجمعها بسبب سياسى ، أو بسبب غير مشروع من الوجهة الانسانية . عندئذ تطبيق « التأميم » على جميع الملكيات التى تسمى اقطاعا فيه مجافاة للعدل من جانب ، وكبت للنشاط الفردى من جانب آخر ، هذا النشاط الذى تحتاجه المجتمعات الاسلامية بعد استقلالها السياسى . لأن المعروف أن النشاط الاقتصادى كله فى مرحلة ما قبل الاستقلال فى المجتمعات الاسلامية يكون على الأقل تحت اشراف « الأجانب » ان لم يكن منهم واليهم . فاذا وضع تحت اشراف الدولة تطبيقا لنظام الماركسية كان معناه : الحيلولة دون وجود فرصة للممارسة الفردية بين الوطنيين واظهار نشاطهم وطاقاتهم ، وكان معناه أيضا : بقاء هؤلاء الوطنيين متواكلين فى هذا الجانب الاقتصادى بعد الاستقلال السياسى ، كما كانوا من قبله متواكلين على النشاط الأجنبى فيه .

وفى المجال السياسى يستورد المجتمع الاسلامى الذى يأخذ بالماركسية اللينينية مبدأ « سيادة الطبقة العاملة » من عمال المصانع والفلاحين فى الأراضى الزراعية ، على ما يسميها بالطبقة البورجوازية أو طبقة المثقفين . وهى الطبقة الباقية فى المجتمع بعد تطبيق النظام الماركسى .

أما طبقة أصحاب رؤوس الأموال ورجال الاقطاع ، كما يسميها ، وهم الأثرياء نوعا ما ، فتصبح الطبقة المنبوذة ، بعد أن تجرد من ثروتها ومن اعتبارها السياسى والمدنى ، والاجتماعى ، ويحكم عليها بالحرمان بدعوى أنها كانت مستغلة لآدمية العمال عن طريق ثرواتهم .

ويتضح مبدأ سيادة الطبقة العاملة فى ضمان الأغلبية أو الصوت الراجح فى المجالس الاستشارية العديدة ، وفى التكوين الحزبى لنظام الحكم . وهى بحكم مستواها الثقافى والفكرى يستحيل عليها أن تعطى الرأى ناضجا فى المصالح القومية والمشاكل الكبرى التى تواجه المجتمع سواء

بالنسبة لأحواله الداخلية ، أو فى علاقته مع المجتمعات الأخرى . ولذا يؤول أمر مشورتها الى من له المنفعة فى تطبيق هذا النظام فى احتفاظه بالسلطة .

***

أثر تطبيق الفلسفة الأوروبية فى المجتمع الاسلامى المعاصر

وعلى أية حال استمرار تطبيق النظام الرأسمالى فى المجتمع الاسلامى نقل اليه روح الطبقية التى تصاحبه فى الغرب .

وربما يحس الأثرياء فى نفوسهم آنئذ بأنهم يكونون طبقة خاصة تعلو ما عداها بسبب المال والثراء . وربما توحى اليهم هذه الروح أكثر : أن لهم نفوذا يجب أن يمارسوه فى توجيه الحكم والسياسة ، لصالح أنفسهم أو لصالح المال . وربما يمارسونه فينجحون للصالح الخاص فى ممارسته ، وربما يسعون الى الاستمرار فى ممارسة السياسة ما داموا هم أقوياء بالمال .

وفى مقابل هذا الاحساس يشعر المثقفون بأنهم ، لكى يتوفر لهم مستوى معقول ومقبول فى المعيشة ، يجب أن يكونوا فى خدمة الأثرياء بأقلامهم ، وبفكرهم ، وبعلمهم ، وأدبهم ، وفلسفتهم ، وفى ادارة الأعمال ومصالح الخدمات ومواطن الانتاج .

ويظل عمال الانتاج والخدمات على ما لهم من احساس يوحى به تصرفات الأثرياء المباشرة قبلهم ، كذلك تصرفات المثقفين فى مواقفهم ازاء هؤلاء الأثرياء وازاء العمال أنفسهم .

وبهذا تبدو فى المجتمع الاسلامى ظاهرة الطبقية وكأنها قائمة وأصيلة . وهى فى واقعها لم تكن الا مصطنعة وعارضة .

فليست هناك وراثة فى الأحاسيس والامتيازات تنقل من جيل الى جيل فى مجموعة مغلقة من الناس فى أى من المجتمعات الاسلامية كما هو شأن الطبقات . وانما هو أمر مؤقت ينبه اليه الثراء الطارىء ، ويتبله النفاق بين المثقفين ، ويخضع له العمال وهم الأكثر حاجة الى أموال الأثرياء .

فاذا اخذ بالنظام المـــاركسى ، بدلا من هذا النظام الرأسمالى ، فى المجتمع الاسلامى بعد الاستقلال السياسى ... يصبح ما كان يبدو على انه ظاهرة طبقية عند الاستمرار فى النظام الغربى ـــ وكأنه حقيقة مقررة الآن . فالدعوة الى الماركســـية اللينينية لا تقبل اطـــلاقا الا اذا عمق الاحساس بالطبقية ، وبالأخص فى نفوس العمال والفلاحين ، وهم الذين تركز عليهم الدعوة .

والذى كان مصطنعا وعارضا بالأمس فى ظل النظام الرأسمالى يصبح اليـــوم تحت الحكم الماركسى حقيقة ، أو يفعل بشأنه على أنه حقيقة لا تقبل واقعيتها الجدل ، فضلا عن الشك .

ولكى تنمى الماركسية ـــ ما يسمى بالروح الطبقية فى المجتمع الاسلامى الذى يطبقها تأخذ :

فى التنديد بالأثرياء .

والعمل على ادخال « الرجعية » ، والقصد بها الدين لا غيره .

وادخال الاستعمار .

وهما ـــ الرجعية والاستعمار ـــ هدفا الماركسية فى الحرب الباردة وبالأخص منذ اعلان التعايش السلمى فى سياسة الاتحاد السوفييتى ، فيما تستهجنه وتثير انفعال الطبقة العاملة ضده . بحجة أن كليهما كان يساند ـــ ولم يزل يساند ـــ استغلال رأس المال لانسانية الطبقة العاملة .

وهنا يعتبر هذا النظام المـــاركسى : التحرر من الرجعية ، أو من الدين ، ومن الاستعمار القديم والجديد ـــ وهذا الثانى لا يدخل فيه طبعا الاستعمار الذى يباشره الاتحاد السوفييتى الآن ـــ أكثر ضرورة من تحقيق الكفاية والعدل فى المجتمع ، واعادة توزيع الثروة القومية التى يرفعهـــا شعارات له .

وهكذا ... يبدأ المجتمع الاسلامى تحت نظام الحكم الغربى بالاحساس بروح الطبقية ، وينتهى فى نظام الحكم الماركسى باعـــلان الحرب ضـــد الطبقية والصراع الطبقى ، دون أن ينجح فى ازالـــة الأحقـــاد ، أو حتى فى اضعاف الاحساس بالطبقية الذى أوجده النظام الرأسمالى .

اذ انـــه يوجـــد احساسا بالطبقية من نوع آخر ، وبين مجموعات جديدة ، بدلا من تلك القديمة التى حاربها ويحاربها .

وهكذا ... منى المجتمع الاسلامى بالرأسمالية على عهد الاستعمار ، وبالماركسية اللينينية بعد الاستقلال . وهـــو بأحدهما لم يزل يـــدور فى تبعية الغير ، ومن الأسف لم يدرك بعد :

١ ـــ فشل النظام الرأسمالى فى خلق المجتمع الانسانى الحر فى الغرب .

٢ ـــ وارهاق النظام الماركسى اللينينى لانسانية المجتمع ، وحرية الفرد معا ، كما يبدو فى الشرق ، ولم يتحقق بأيهما عدل اجتماعى .

... كما لم يدرك المجتمع الاسلامى بعد من الأسف الشديد أيضا :

أن الاسلام وحده هو الكفيل باعادة المجتمع الاسلامى مجتمعا متعاونا ، متحابا أفراده كأسنان المشط ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وأن الأمة التى تجتمع على أساس من الاسلام هى خير أمة أخرجت للناس .

وربما يأتى الغد القريب بادراك : أن الاسلام دين الحياة الانسانية ، ودين الطبيعة البشرية الذى لا يخلف مشاكل لو اتبـــع ، والذى يحـــل المشاكل القائمة اذا أخذ به ...

***